بين العقدة العمرية وعهد محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية

دراسة تحليلية مقارنة

الدكتور: عبد الرحمن أحمد سالم

أستاذ مساعد بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

مقدمة:

بدأت المواجهة بين المسلمين والروم (البيزنطيين) منذ عهد الرسول ﷺ. وكانت الشرارة الأولى في هذه المواجهة هي سرية مؤتة في العام الثامن للهجرة (٦٢٩م). ولم يكن الغرض من ورائها إلا تأديب عرب الشام المتحالفين مع الروم بعد أن كَثُر استفزازهم للمسلمين واجتراؤهم عليهم. ولكن المسلمين فوجئوا في مؤتة بأنهم لا يواجهون عرب الشام وحدهم، بل يواجهون معهم حلفاءهم من الروم الذين هُرِعُوا لنصرتهم بعددهم وعدتهم. وقد كانت هذه المعركة تجربة شديدة الوطأة على المسلمين؛ فقد لفتت أنظارهم إلى خطورة العدو المتربص بهم وهو المتمثل في دولة الروم. وقد استمرت المواجهات بين المسلمين والروم منذ ذلك العهد، يشتد أوارها حينًا ويهدأ حينًا آخر، حتى سقطت القسطنطينية في عام ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) على يد السلطان محمد الفاتح، فآذن سقوطها بانهيار الإمبراطورية البيزنطية بعد أكثر من ثمانية قرون من الصراع المتواصل بين الجانبين.

ورغم شراسة الصراع بين المسلمين والروم في الكثير من المواجهات التي جرت بينهما خلال هذه الحقبة فإن التاريخ يشهد أن المسلمين - حتى في أروع ساعات انتصارهم - لم يسمحوا لأنفسهم أن يتجاوزوا حدود القصد في التعامل مع عدوهم. ونكتفي في هذا السياق بأن نتناول بالدراسة والتحليل والمقارنة موقفين، حدث أولهما في مرحلة مبكرة من مراحل الصراع الإسلامي البيزنطي، وحدث الآخر في نهاية

مراحل هذا الصراع. أما أول الموقفين فقد تمثل في معاملة المسلمين لأهل بيت المقدس بعد فتحها في خلافة عمر بن الخطاب، وهي المعاملة التي تتضح معالمها في «العهدة العمرية»؛ وأما الثاني فقد تمثل في معاملة المسلمين لأهل القسطنطينية بعد استيلاء محمد الفاتح عليها، وإسدال الستار على آخر حلقات الصراع بين المسلمين والروم.

أولاً: العُهْدة العُمَريّة:

أ- الخلفية التاريخية للعُهْدَة العُمَرِيّة:

لم يكن تفكير المسلمين في فتح بلاد الشام في عصر الخلفاء الراشدين نابعًا من سياسة عدوانية تمليها الرغبة في التوسع الإقليمي، بل كان نابعًا من ضرورات الدفاع عن الكيان الإسلامي ذاته. وقد توفي الرسول ﷺ والموقف على جبهة الشام ينذر بالانفجار في أية لحظة. وكان بعث أُسامة بن زيد إلى الشامِ قبيل وفاة الرسول ﷺ ردًا على تجاوزات قام بها عرب الشام المتحالفون مع الروم ضد دولة المدينة. ورغم أن أُسامة اضطر إلى العودة بجيشه إلى المدينة قبل إنجاز مهمته نتيجة وفاة الرسول ﷺ فقد كان أول قرار اتخذه أبو بكر بعد توليه الخلافة هو إنفاذ بعث أسامة حتى لا يرد قضاء قضى به رسول الله ﷺ[1]. وقد أنهى أسامة مهمته بنجاح، الأمر الذي أثار مخاوف هرقل إمبراطور الروم، وجعله يضع رابطة بالبلقاء[2] استعدادًا لجولات أخرى من الصراع بين الجانبين.

في هذا الجو الذي كان يسوده القلق والتوتر والترقب على الجبهة الإسلامية البيزنطية كان من الطبيعي أن تشتعل شرارة المواجهة بين المسلمين والروم في خلافة أبي بكر (١١-١٣هـ=٦٣٢-٦٣٤م) رغم أن المراحل الحاسمة في هذه المواجهة لم تحدث إلا في خلافة عمر (١٣-٢٣هـ=٦٣٤-٦٤٤م)؛ فقد حدثت في عهده معركة اليرموك (١٥هـ=٦٣٦م) وهي التي قررت مصير الشام كله، وجعلت هرقل يفقد

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبري)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، جـ٣، ص ٢٢٦-٢٢٧.

(٢) الواقدي: كتاب المغازي، بتحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٤، جـ٣، ص ١١٢٤. والبلقاء اسم أطلقته مصادرنا العربية على الإقليم الأردني بأسره، أو على الجزء الأوسط منه، وأهم مدنه عمّان. راجع: مادة البلقاء في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة دار الشعب)، جـ٨، ص ١٩-٢١.

الأمل في احتفاظ الروم بهذا الإقليم. وقد تمكن المسلمون بعد معركة اليرموك من تثبيت أقدامهم فيما كانوا قد فتحوه من مدن الشام كدمشق وحمص وبصرى وغيرها، كما تمكنوا من بسط نفوذهم على ما تبقى من معاقل الشام ومدنه، وعلى رأسها مدينة القدس أو بيت المقدس التي عرفت في مصادرنا أيضًا باسم «إيلياء»[١].

ولا تتفق مصادرنا حول التاريخ الدقيق لفتح بيت المقدس[٢] كما لا تتفق في روايتها لملابسات هذا الفتح. على أننا - فيما يتعلق بتاريخ الفتح- نميل إلى قبول رواية البلاذري التي تحدده بعام ١٧هـ (٦٣٨م). والسبب الذي يدعونا إلى ترجيح هذه الرواية أن بيت المقدس كانت من بين مدن الشام القليلة التي طال حصار المسلمين لها نظرًا لمقاومتها الشديدة للفتح الإسلامي. ولعل السبب في طول هذا الحصار أن التأثير الهيليني كان غالبًا على بيت المقدس كما كان غالبًا أيضًا على مدينة قيسارية التي كان حصار المسلمين لها أطول أمدًا[٣] ؛ فقد ظلت تُقاوم هذا الحصار حتى استسلامها سنة ١٩هـ (٦٤٠م)[٤].

أما بخصوص ملابسات الفتح فإن الذي نطمئن إليه من خلال تضارب الروايات أن عمرو بن العاص كان هو الذي تولى في البداية مسئولية حصار بيت المقدس؛ فالمعروف أن عمرًا أُسْنِدتْ إليه مهمة حرب الروم في فلسطين منذ خلافة أبي بكر[٥]. وقد حاصر عمرو بيت المقدس حصارًا طويلاً دون أن يتمكن من فتحها. والجدير بالذكر هنا أن عددًا كبيرًا من فلول الروم الذين كانوا قد هزموا في اليرموك لجأوا إلى

---

(١) انظر - على سبيل المثال- اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢، جـ٢، ص١٤٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، ص ١٤٤ . وحول التفسيرات المختلفة لاسم «إيلياء» ارجع إلى:

G. Le Strange, Palestine under the Moslems, London, 1890, pp. 83 - 84 .

(٢) تذكر بعض المصادر أنها فتحت سنة ١٥هـ (٦٣٦م). انظر مثلاً: تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٧؛ الكامل لابن الأثير، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩، جـ٢ ص٤٩٩ ويذكر بعضها أنها فتحت سنة ١٦هـ (٦٣٧م). انظر مثلاً: تاريخ خليفة بن خياط، دار الفكر، بيروت، ص ٩٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت (د. ت)، جـ٣ ، ص ٢٨٣ . وفي فتوح البلدان للبلاذري ص ١٤٤ أنها فتحت سنة ١٧هـ (٦٣٨م).

(٣) Philip Hitti, History of Syria, London, 1951, p. 416 .

(٤) البلاذري: نفس المصدر، ص ١٤٧ .

(٥) تاريخ الطبري جـ٣، ص٣٩٠؛ البلاذري، نفس المصدر، ص ١٤٤ .

بيت المقدس وتحصنوا بها[١] ، وكان على رأس هؤلاء جميعًا القائد البيزنطي المشهور أريطيون الذي يعرف في مصادرنا العربية باسم «الأرطبون»، وهو الذي تولى إدارة شئون بيت المقدس كما تولى مسئولية الدفاع عنها أثناء الحصار الذي استمر أربعة أشهر[٢] . ولما اشتدت مقاومة بيت المقدس كتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يستمده قائلاً: «إني أعالج حربًا كئودًا صَدُومًا وبلادًا ادُّخرَتْ لك، فرأيك»[٣]. وهنا تختلط مصادرنا في روايتها لتسلسل الأحداث؛ فيذكر الطبري أن الخليفة عرف أن عَمْرًا لم يقل ذلك إلا بعلم، فخرج متوجهًا إلى الشام[٤] ؛ في حين تفيد رواية البلاذري أن أبا عبيدة قدم على عمرو أثناء حصاره بيت المقدس[٥]. والذي يمكن استنتاجه من سياق الأحداث أن أبا عبيدة انضم بجيشه إلى عمرو أثناء الحصار بناء على توجيهات الخليفة بعد تلقيه رسالة عمرو. وكان من الطبيعي أن يتولى أبو عبيدة قيادة الحصار بوصفه القائد الأعلى للقوات الإسلامية بالشام. وقد كان انضمام أبي عبيدة إلى عمرو نقطة تحول خطيرة في مجرى الحصار؛ فقد أيقن أهل بيت المقدس أنه لا جدوى من استمرار المقاومة، إذ لا طاقة لهم بحرب أبي عبيدة[٦]، كما يئسوا من وصول المدد من الروم بعد أن استسلمت معظم مدن الشام، وعجزَ هرقل عن إغاثتها؛ ومن هنا لم يجدوا بدًا من طلب الصلح من أبي عبيدة. وكان المتحدث باسمهم في هذا الشأن صفرونيوس Sophronius بطريرك بيت المقدس الملكاني المعين من قبل هرقل[٧]؛ فقد خاطب صفرونيوس أبا عبيدة من فوق أسوار مدينة بيت المقدس طالبًا منه الأمان والصلح «على مثل ما صُولح عليه أهل مدن الشام من أداء

---

(١) E. Gibbon, The Decline and Fall of the Raman Enpire, New York, 1915, vol. 5, p. 328.

(٢) راجع في ذلك: ألفريد بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبي حديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م، ص ١٧٢، ١٩١؛ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٩٦، جـ١، ص ١٨٨- ١٨٩ . وانظر أيضًا: Gibbon, loc. cit. ويرى البعض أن الحصار استمر عامين. انظر: A. A. Vasiliv, History the Byzantine Emire, Wisconsin, 1958, p. 211

(٣) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٧ . والحرب الكئود: الشاقة الصعبة .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٤٤ .

(٦) الأزدي: تاريخ فتوح الشام، القاهرة، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠، ص ٢٤٧ .

(٧) بتلر: المرجع السابق، ص ١٤٠ .

الجزية والخراج والدخول فيما دخل فيه نظراؤهم، على أن يكون المتولي للعقد عمر ابن الخطاب نفسه»[1]. وقد كتب أبو عبيدة إلى عمر كتابًا يوضح له فيه ما عرضه عليه أهل بيت المقدس ليرى رأيه، وكان مما جاء فيه قوله: «إنهم - أي أهل بيت المقدس- سألوا الصلح على أن يقدم عليهم أمير المؤمنين، فيكون هو المؤمِّن لهم والكاتب لهم كتابًا. وإنا خَشينا أن يقدم أمير المؤمنين ثم يغدر القوم فيرجعون، فأخذنا عليهم المواثيق المغلظة بأيمانهم لئن أنت قدمت عليهم فأمَّنتهم على أنفسهم وأموالهم ليتقبلُنَّ ذلك، وليؤدُنَّ الجزية، وليدخُلُنَّ فيما دَخَلَ فيه أهل الذمة، ففعلوا، وأخذنا عليهم الأيمان بذلك. فإن رأيت يا أمير المؤمنين أن تقدم علينا فافعل؛ فإن في سيرك أجرًا وسلامًا وعافية للمسلمين. أراك الله مرشدك، ويسَّر أمرك، والسلام عليك»[2].

وبعد أن استشار عمر أصحابه في هذا الشأن اتخذ قرار الذهاب إلى الشام لإبرام الصلح مع أهل بيت المقدس[3]. والسؤال المشروع هنا: لماذا أصر أهل بيت المقدس على ألا يعقدوا الصلح إلا مع الخليفة نفسه؟ لعل الإجابة عن هذا السؤال تلتمس في ضوء المقاومة العنيدة التي ذكرنا أن المسلمين واجهوها أثناء حصارهم لبيت المقدس[4]. فقد جعلت هذه المقاومة سكان بيت المقدس يخشون بطش المسلمين وانتقامهم، أو جعلتهم- على الأقل- يخشون ألا يعاملهم المسلمون بمثل ما عاملوا به أهل المدن الشامية الأخرى التي كانت أقل عنادًا في مقاومتها لهم. ثم إن الآثار المسيحية النفيسة التي احتوت عليها مدينة بيت المقدس زادت من حرص أهلها على الحصول على صلح يضمن لهم سلامة هذه المقدسات. وقد كان حضور الخليفة بنفسه هذا الصلح- من وجهة نظرهم- خير ما يزيده تأكيدًا وتوثيقًا[5].

---

(١) البلاذري: نفس المصدر والصفحة؛ بتلر: نفس المرجع، ص ١٤٨ .

(٢) الأزدي: المصدر السابق، ص٢٤٩ .

(٣) نفس المصدر، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ . ويقدم الأزدي تفاصيل الحوار الذي دار بين عمر وعثمان وعلي بهذا الشأن.

(٤) يقول الطبري في سياق حديثه عن مقاومة أهل بيت المقدس لعمرو بن العاص: «كانوا قد أشجوا عمرًا وأشجاهم»! تاريخ الطبري جـ٣، ص٩٠٨ .

(٥) انظر حول ذلك: حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، جـ١، ص ١٨٩ .

هكذا سافر عمر إلى الشام استجابة لرغبة أهل بيت المقدس. وقد نزل أولاً بالجابية Gabitha من أعمال دمشق[١]؛ وكانت الجابية من أكبر معسكرات الشام منذ بداية الفتوحات الإسلامية[٢]. وهناك التقى بأمراء الأجناد، وكان قد كتب إليهم بأن يوافوه بالجابية، وأن يستخلفوا على أعمالهم[٣]. ومما تجدر الإشارة إليه في هذا السياق أن القائد البيزنطي أريطبون (الأرطبون) الذي ذكرنا أنه كان يتولى مسئولية الدفاع عن بيت المقدس توجه إلى مصر مع بعض قادة الروم الآخرين عندما علم بقدوم الخليفة إلى الجابية وأيقن بعدم جدوى استمرار المقاومة في بيت المقدس[٤]. وقد أراد أن يتخذ من مصر مركزاً لتهديد الوجود الإسلامي بالشام؛ فلا غرابة - إذن- أن يكون قرار الفتح الإسلامي لمصر قد اتُّخِذَ بالجابية[٥].

ويحق لنا هنا أن نتساءل: أين عقد عمر الصلح مع ممثلي أهل بيت المقدس؟ هل عقده بالجابية حيث نزل أولاً، أم عقده ببيت المقدس؟ إن ما نُرجِّحه وما يبدو أكثر اتساقًا مع سياق الأحداث هو أن هذا الصلح عُقِدَ بالجابية مع وفد من أهل بيت المقدس برئاسة البطريرك صفرونيوس؛ وهذا ما تصرح به رواية الطبري حيث يقول: «صالح عمر أهل إيلياء بالجابية»[٦]. وبعد إتمام عقد الصلح توجه الخليفة إلى بيت المقدس فدخلها وتفقد أوضاعها وصلى بها؛ وهذا ما يذكره الطبري أيضًا في قوله: «ولما بعث عمر بأمان أهل إيلياء وسكنها الجند شخص إلى بيت المقدس من الجابية»[٧]. فرواية عقد الصلح بالجابية التي كانت أكبر معسكر إسلامي بالشام كما أشرنا،

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ١٠٦ . وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع؛ لأنه يؤدي إليه.

(٢) انظر مادة: «الجابية» في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة دار الشعب) بقلم: لامنس Lammens، جـ١، ص٣٧٣ .

(٣) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٣، وانظر أيضًا: ابن الأثير: الكامل ، جـ٢ ، ص٥٠٠ .

(٤) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٨؛ ابن الأثير: الكامل، جـ٢ ص٥٠١ .

(٥) بتلر: فتح العرب لمصر، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٦) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٨. وانظر أيضًا:

J. B. Glubb, The Great Arab Conquests, London, 1963, p. 183 .

(٧) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦١٠ . ويذكر ابن كثير أن عمر «لبّى حين دخل بيت المقدس فصلى فيه تحية المسجد بمحراب داود، وصلى بالمسلمين فيه صلاة الغداة من الغد، ثم جاء إلى الصخرة فاستدل على مكانها من كعب الأحبار... ثم جعل المسجد في قبلي بيت المقدس وهو العمري اليوم». البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، جـ٧، ص ٥٧ .

وحيث كان مع الخليفة كبار قادة جنده يتشاور معهم- هي الرواية التي نجدها أحرى بالقبول من بعض الروايات الأخرى التي تفيد أن عمر ذهب إلى بيت المقدس من أجل إتمام هذا الصلح[1] .

ومهما يكن من أمر فإن عمر اتفق مع أهل بيت المقدس- أثناء زيارته تلك إلى الشام - على التوصل إلى صلح أقر الطرفان شروطه، وتم بمقتضاه تسليم بيت المقدس للمسلمين. وشهد على عقد الصلح- وفق رواية الطبري- خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان[2]. والأخير هو الذي كتب عقد الصلح[3] .

بعد أن ناقشنا بقدر من التفصيل الملابسات التاريخية التي أحاطت بعقد صلح بيت المقدس، أو ما يعرف أحيانًا بالعهدة العمرية، نأتي الآن إلى مناقشة العهدة ذاتها، وما اشتملت عليه من شروط وما انطوت عليه من دلالات.

ب- العهدة العمرية: شروطها ودلالاتها:

يورد محمد بن جرير الطبري نص العهد الذي عقده الخليفة عمر بن الخطاب مع أهل بيت المقدس. ونحن نذكره أولاً كما جاء في الطبري، ثم نستخلص أهم بنوده.

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها؛ أنه لا تُسكن كنائسُهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارُّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت[4]؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه

(١) انظر على سبيل المثال: الأزدي: تاريخ فتوح الشام، ص ٢٥٧- ٢٥٨؛ تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٤٧ .
(٢) تاريخ الطبري، جـ٣، ص ٦٠٩ . (٣) ابن كثير: المصدر السابق، جـ٧، ص ٥٨ .
(٤) اللُّصوت: جمع لَصْت (بفتح اللام وسكون الصاد). واللِّصْت: اللص. انظر مادة (لصت). في لسان العرب لابن منظور.

وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصُلُبَهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية»[1].

يمكننا أن نخلص ما اشتمل عليه هذا العهد من بنود أساسية فيما يلي:

أولاً: منحهم هذا العهد أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم؛ فلا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص من مساحتها، ولا يتعرضون في أنفسهم أو أموالهم أو صلبانهم لأي أذى.

ثانيًا: ضمن لهم أنهم «لا يكرهون على دينهم».

ثالثًا: فرض عليهم - مقابل هذه الحقوق - أن يعطوا للمسلمين الجزية «كما يعطي أهل المدائن» أي أهل مدن الشام الأخرى[2].

رابعًا: طلب منهم إخراج الروم من بيت المقدس؛ فمن خرج منهم ضمن له المسلمون الحماية حتى يبلغ مأمنه ومن أقام فله من الحقوق مثل ما لأهل بيت المقدس، وعليه من الواجبات مثل ما عليهم.

خامسًا: خيَّر أهل بيت المقدس بين البقاء بمدينتهم على هذه الشروط، أو اللحاق بالروم مع ضمان توفير الحماية اللازمة لهم حتى يبلغوا مأمنهم.

بعد الإلمام بأهم البنود التي تضمنتها العهدة العمرية - كما أوردها الطبري- نقدم عددًا من الملاحظات الأساسية حول أهم ما تنطوي عليه هذه البنود من دلالات:

وأول ما نلاحظه أن الحقوق التي مُنِحَتْ هنا لأهل بيت المقدس- وهي حماية

---

(١) الطبري: نفس المصدر والصفحة.

(٢) وهذا ما جاء صريحًا في الصلح الذي عقده عمر مع أهل لُد. نفس المصدر والصفحة.

النفس والمال والعقيـدة- مثلت قاعدة عامـة في معاملة الدولة الإسلامـية لمن يخضع لسلطانها من أهل الكِـتَاب، ومن يلحق بهم، ولم تكن استـثناء اختص به أهل بيت المقدس. والأمثلة على ذلك كثيرة، وخاصة في العهد النبوي والخلافة الراشدة[1] .

ونلاحظ ثانيًا أن ما يقـابل هذه الحقـوق من التزامات يتـمثل أسـاسًا في دفع الجزية. والثابت أن الجزية لا تجب إلا على الرجـال الأحرار العقلاء[2]؛ ويعفى منها كل من لا تتيـح له قدراته المادية إمكانيـة أدائها[3] وهؤلاء الذين يُعْـفَون من الجـزية يتمـتعون بكامل الحقـوق التي تترتب عليهـا. على أن ما تنبغي الإشـارة إليه هنا أن الجزية- بالإضافة إلى كونها واجبًا تترتب عليه حقوق- ترمز أيضًا إلى قبول الانضواء تحت راية الدولة الجديدة؛ فـهي إعلان بالمواطنة بكل ما يتـرتب على هذه المواطنة من واجبات وحقوق.

والملاحظة الثالثة أن الأمـان الذي منحـه هذا العـهـد لأهل بيت المقـدس لا ينسـحب على المقيـمين داخل المدينة فقط، بل يمـتد ليشـمل من يقـررون مغادرتـها متوجهين إلى الروم. ويسـتظل هؤلاء بمظلة الحماية الإسلامية حـتى يبلغوا الجهة التي يقصدونها ويشعرون فيها بالأمن.

والملاحظة الرابعة أن هذا العهد لم يكتف بالتأكيد على حماية كنائس أهل بيت المقدس وصلبانهم رغم ما تعنيه هذه الحماية من عدم التعرض لعقيدتهم، بل نص بعد ذلك بوضوح على أنهـم «لا يُكْرَهون على دينهم» أي: لا يجبرون عـلى التخلي عن عقيدتهم. والدلالة المهمة لذلك تتمثل في تأكيد مبدأ حرية العقيدة، وعدم الإكراه في الدين؛ وهو ذلك المبدأ الإسلامي الـذي لم يفرط فيه المسلمون على امـتداد تاريخهم رغم أن الكثيرين - وخاصة في الغرب- مازالوا يثيرون الشكوك حوله.

---

(١) من أمثلة ذلك معاهدة الرسـول ﷺ مع نصارى نجران، ومعاهدة حبيب بن مـسلمة الفهري مع أهل دَبِيل في أرمينيـا، ومعاهدة خالد بن الوليـد مع أهل دمشق، ومعاهدة عـمر بن الخطاب مع أهل لُد في فلسطين. انظر نصوص هذه المعاهدات في: محـمد حميد الله: مجمـوعة الوثائق السياسية في العهـد النبوي والخلافة الراشدة، هيئة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤١، ص ٩٣، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٨ .

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، طبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٣م، ص ١٤٤ .

(٣) أبو يوسف: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت (د.ت)، ص ١٢٢ .

والملاحظة الخامسة والأخيرة تتعلق بما جاء في هذا العهد عن وضع الروم في بيت المقدس. ومما لا شك فيه أن الروم كانوا هم الذين يقودون المقاومة الأساسية في بيت المقدس ضد المسلمين؛ فلم يكن استمرار وجودهم هناك بعد الفتح مدعاة للطمأنينة من جانب المسلمين. وقد خرج فعلاً قائد المقاومة أريطيون (أو الأرطبون) متوجهاً إلى مصر ومعه بعض قادة الروم الآخرين عندما كان الخليفة مقيمًا بالجابية كما سبقت الإشارة. ومن هنا جاء في العهد ما يحث أهل بيت المقدس على إخراج من تبقى من الروم من المدينة على أن يوفِّر لهم المسلمون الحماية حتى يبلغوا مأمنهم. ولكن الأمر بإخراج الروم من بيت المقدس لم يكن بالغ الصرامة خاليًا من المرونة؛ فقد أتاح هذا «العهد» لمن يرغب من الروم في البقاء في المدينة أن يفعل ذلك بشرط أساسي وهو أن يدفع الجزية رمزًا لقبوله بسلطان الدولة الجديدة وامتثاله لقوانينها؛ وله بعد ذلك أن يتمتع بما يتمتع به أهل بيت المقدس وغيرهم من مواطني الدولة الإسلامية من حقوق. وهذا نموذج بالغ الدلالة من نماذج التسامح الإسلامي.

اعتمدنا في التحليل السابق لنص معاهدة بيت المقدس على رواية الطبري لأنها الرواية التي نراها أجدر بالتصديق، وأحْرَى بالقبول؛ فهي تقترب في جوهرها من العهود التي أُبرمت في مواقف مماثلة في عهد الرسول ﷺ، وعهد خلفائه الراشدين.

وقد يكون من المناسب هنا أن نشير بسرعة إلى نص آخر من نصوص هذه المعاهدة أورده اليعقوبي في سياق حديثه عن خروج عمر بن الخطاب إلى الشام حيث يقول: «نزل الجابية من أرض دمشق، ثم صار إلى بيت المقدس، فافتتحها صلحًا، وكتب لهم كتابًا: (بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب كتبه عمر بن الخطاب لأهل بيت المقدس، إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم، لا تسكن ولا تخرب، إلا أن تحدثوا حدثًا عامًا). وأشهد شهودًا»[1].

يتضح من هذا النص أن اليعقوبي يحتفظ من كتاب الصلح بأهم بنوده، وهو تأمين أهل بيت المقدس على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم بشرط عدم خروجهم على نظام الدولة وقوانينها؛ ولكنه يُغْفِل بعض البنود الأخرى المهمة كاشتراط قبولهم بدفع

(١) تاريخ اليعقوبي، جـ٢، ص١٤٧.

الجزية، وكالتأكيد على عدم إكراههم في الدين، وكتخييرهم بين الإقامة ببيت المقدس أو اللحاق بالروم، مع ضمان حمايتهم حتى يبلغوا مأمنهم، وكإعطاء الروم المقيمين ببيت المقدس الحق في استمرار إقامتهم بها إذا أذعنوا للمسلمين وقبلوا بدفع الجزية.

والمهم هنا أن رواية اليعقوبي لنص معاهدة بيت المقدس- رغم أنها أكثر اختصارًا من رواية الطبري- لا تقدم بين ثنايها ما يبدو غريبًا على روح المعاهدات الإسلامية في الصدر الأول.

ولكن الرواية التي تستحق أن نتوقف عندها هنا - لكثرة ما أثارته حولها من جدل[1] - هي رواية ابن عساكر التي يوردها تحت عنوان: «باب ذكر ما اشترط صدر هذه الأمة عند افتتاح الشام، على أهل الذمة». وتبدأ هذه الرواية بما يأتي: «عن عبدالرحمن بن غنم أن عمر بن الخطاب كتب على النصارى حين صولح: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى أرض الشام: إنا سألناك الأمان لأنفسنا وأهالينا وأولادنا وأموالنا وأهل ملتنا على أن نؤدي الجزية عن يد ونحن صاغرون، وعلى ألاَّ نمنع أحدًا من المسلمين أن ينزلوا كنائسنا في الليل والنهار، ونضيفهم فيها ثلاثًا، ونطعمهم فيها الطعام، ونوسع لهم أبوابها، ولا نضرب فيها بالنواقيس إلا ضربًا خفيًا، ولا نرفع فيها أصواتنا بالقراءة». وتستمر هذه الرواية في عرض ما اشترطه نصارى الشام على أنفسهم من أنهم لن يؤوا جاسوسًا متآمرًا على المسلمين، ولن يحدثوا كنيسة ولا ديرًا، ثم تذكر ما نصه: «ولا نتعلم القرآن ولا نعلمه أولادنا... وأن نجزّ مقادم رؤوسنا، ونشد الزنانير في أوساطنا، ونلزم ديننا، ولا نتشبه بالمسلمين في لباسهم، ولا في هيئتهم، ولا في سروجهم، ولا نقش خواتيمهم، فننقشها عربيًا... وأن نعظمهم، ونقوم لهم من مجالسنا... ولا نتخذ سلاحًا ولا سيفًا، ولا نحمله في حضر ولا في سفر في أرض المسلمين...»[2].

---

(١) يمكن الرجوع إلى تفاصيل ذلك في كتاب ترتون Tritton المعنون: أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ١-١١ .

(٢) راجع النص الكامل لهذا الصلح في: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، بتحقيق: صلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٥١م، جـ١، ص ٥٦٣-٥٦٤ . وقد أورد ابن عساكر روايات أخرى تتشابه كثيرًا في مضمونها، نفس المصدر، ص ٥٦٥-٥٦٨ .

هذا أهم ما جاء في رواية ابن عساكر للصلح الذي عُقد بين عمر بن الخطاب ونصارى الشام. وأول ما نلاحظه على هذه الرواية أنها لم تشر إشارة واضحة إلى أن عمر عقد هذا الصلح مع أهل بيت المقدس، بل أشارت إلى أنه عقده مع نصارى الشام. وما يشير إليه سياق الأحداث- على أية حال- أن عَقْدَ عمر لهذا الصلح كان عند زيارته إلى الشام بناءً على طلب أهل بيت المقدس؛ فهؤلاء كانوا أهم من يشملهم هذا الصلح. ثم إننا نلاحظ ثانيًا ما تحمله رواية ابن عساكر من تناقض؛ فهو يذكر في البداية أن عمر هو الذي أصدر كتاب الصلح، ثم يذكر بعد ذلك في مستهل روايته لنص الكتاب أن هذا كتابٌ لعمر من نصارى الشام، وهو ما يفيد أن الكتاب صادر عن نصارى الشام، لا عن عمر، فكأن نصارى الشام هم الذين كتبوا الشروط التي احتواها هذا الكتاب، وهذا ما نلاحظه فعلاً عند قراءتنا للكتاب.

أما فيما يتعلق بالنص نفسه، فإن أهم ما نلاحظه أن بعض الشروط التي اشترطها نصارى الشام على أنفسهم تبدو مثيرة للدهشة. فمن ذلك اشتراطهم ألاَّ يتعلموا القرآن، ولا يعلموه أولادهم، وأن يجزّوا مقادم رؤوسهم ويشدوا الزنانير في أوساطهم، وألاَّ يتشبهوا بالمسلمين حتى في سروجهم أو نقش خواتمهم، وألاَّ يحملوا سلاحًا في حضر ولا سفر في أرض المسلمين.

إن لدينا من الأسباب ما يجعلنا نشك كثيراً في وثاقة هذا الكتاب. ونجمل هذه الأسباب فيما يلي:

أولاً: يبدو أكثر اتساقًا مع منطق الأشياء أن يكون الخليفة أو من ينوب عنه هو الذي صدر عنه كتاب الصلح بما فيه من شروط؛ فالخليفة في هذه الحالة يمثل الطرف الغالب. وليس من المألوف أن تكون الشروط صادرة عن المغلوب[1].

ثانيًا: أنه لم يُؤْثر عن الرسول ﷺ في معاهداته مع أهل الذمة اشتراط مثل هذه الشروط. ومعاهدته مع نصارى نجران مثال واضح على ذلك[2]. وقد كان الخلفاء الراشدون جميعًا أحرص ما يكونون على الاقتداء برسول الله ﷺ.

(١) انظر: ترتون: المرجع السابق، ص ٤ .

(٢) انظر نص المعاهدة في: محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، ص٩٣ .

ثالثًا: أن المعاهدات المماثلة التي عقدت في عصر الخلفاء الراشدين- وخاصة في عصر عمر وعثمان [1]- تقترب في جوهرها من معاهدات الرسول ﷺ، وتبتعد كثيرًا عن روح المعاهدة التي نناقشها الآن.

رابعًا: أن بعض الشروط التي اشتملت عليها رواية ابن عساكر لمعاهدة بيت المقدس تبدو - كما أشرنا- بالغة الغرابة، غير متسقة مع موقف الإسلام السمح تجاه أهل الذمة. بل إن واحدًا من هذه الشروط يثير حوله علامة استفهام كبيرة وهو ألا يتعلموا القرآن ولا يعلموه أولادهم؛ فالقرآن كتاب هداية موجه إلى الناس كافة، فكيف يمكننا أن نفهم صدور قرار يقضي بمنع بعض الناس من تعلمه وتعليمه لأولادهم؟

أما وقد ترددنا كثيرًا في قبول رواية ابن عساكر لمعاهدة بيت المقدس فقد يكون من المفيد في هذا السياق أن نشير إلى ما اتخذه الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ= ٨٤٧-٨٦١م) من إجراءات تتعلق بأهل الذمة[2]؛ فقد ألزمهم بأمور يشبه كثير منها ما جاء في المعاهدة التي رواها ابن عساكر؛ فمن ذلك نهيه أن يتعلم أولادهم في كتاتيب المسلمين أو أن يعلمهم مسلم. ومن ذلك أيضًا إلزامهم بأن تكون سروج دوابهم على هيئة مخصوصة، وأن تكون قلانسهم وطيالسهم ذات لون عسلي[3]، وألاَّ تبرز نساؤهم إلا في زي عسلي.. إلى غير ذلك من الأمور التي لم تألفها روح الإسلام. وقد كتب المتوكل كتابًا بذلك إلى عماله في الولايات المختلفة سنة ٢٣٥هـ (٨٥٠م)[4]. ومما لاشك فيه أن هذه الإجراءات الاستثنائية لم تلق استجابة حقيقية في أرجاء الدولة الإسلامية، ولهذا توقف تنفيذها بعد قليل.

من هنا يمكننا القول باطمئنان إن رواية ابن عساكر لمعاهدة بيت المقدس تتصادم

---

(١) انظر بعض نماذج هذه المعاهدات في المرجع السابق، ص ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٨ .

(٢) راجع التفاصيل في تاريخ الطبري، جـ٩ ، ص١٧١-١٧٤ .

(٣) القلانس جمع قَلَنْسُوة وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال؛ والطيالسة جمع طيلَسَان وهو وشاح يوضع على الكتف أو يحيط بالبدن خال عن التفصيل والخياطة. انظر مادتي: قلس وطلس في المعجم الوسيط، طبعة مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

(٤) تاريخ الطبري، جـ٩ ، ص١٧٤ .

مع التقاليد الإسلامية المستقرة في معاملة أهل الكتاب؛ ولهذا نراها غير جديرة بالتصديق. والغالب أنها وضعت في وقت متأخر كانت قد تسللت فيه إلى المجتمع الإسلامي بعض المفاهيم التي لا تعبر بصدق عن جوهر الإسلام.

تبقى أمامنا بعد ذلك رواية الطبري لمعاهدة بيت المقدس، وهي الرواية التي نعتمدها؛ لأنها تقدم لنا نصًا ينسجم تمامًا مع نصوص المعاهدات الأخرى المماثلة في عصر الرسول ﷺ وعصر خلفائه الراشدين، ولأنها كذلك تأتي انعكاسًا صادقًا لما اتسم به الإسلام من سماحة وإنسانية وإنصاف.

ثانيًا عهد محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية

يتفق «عهد» السلطان العثماني محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية مع «العهدة العمرية» في أمور، ويختلف معها في أمور. ونحاول الآن - من خلال دراسة مركزة لهذا «العهد» الأخير- أن نرى ما بين العهدين من وجوه الاتفاق والاختلاف.

أ- الخلفية التاريخية لعهد محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية:

يرجع ظهور قوة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى إلى أواخر القرن الثالث عشر الميلادي (السابع الهجري) عندما أخذت تحل تدريجيًا محل قوة الأتراك السلاجقة التي كانت تطوي آخر صفحاتها. ورغم أن «إرطُغْرُل» كان أول زعماء هذه القوة الناهضة فإن عثمان (الذي تقلد المسئولية من سنة ١٢٨٨م حتى وفاته سنة ١٣٢٦م) يُعَدُّ هو المؤسس الحقيقي للدولة العثمانية وهو الذي خلع عليها اسمها[١]. وقد تمكن ابنه وخليفته أورخان (١٣٢٦-١٣٦٠م) من الاستيلاء على مدينة بورصة Bruse أو Burse، أهم مدن آسيا الصغرى، في مطلع حكمه حيث اتخذها عاصمة لدولته[٢]. وكان على هذه القوة المتنامية أن تضطلع بنفس الدور الذي اضطلعت به

(١) انظر: محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٩-٤١. وانظر أيضًا: Colin Imber, The Ottoman Empire, New York, 2002, p.9 .

(٢) لمزيد من التفاصيل ارجع إلى مادة بروسه (بورسه) في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية (دار الشعب، القاهرة)، بقلم إيناالحق H. Inalcik، ص ١٧١-١٧٩ . وارجع أيضًا إلى: الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مجموعة دراسات بإشراف أكمل الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول، ١٩٩٩، ص١٢ .

قبلهـا دولة الأتراك السلاجقة وهو الصـراع ضد البيزنطيين الذين كـانوا يمثلون العدو الأكبر للدولة الإسلامية منذ قيامها في القرن السابع الميلادي.

وخلال حكم مراد الأول بن أورخان (١٣٦٠-١٣٨٩م) اتسعت أملاك العثمانيين اتساعًا عظـيمًا في الأناضول والبلقان عـلى حساب الأراضي البيزنطـية، وتمكن مراد الأول في عام ١٣٦١م من الاسـتيلاء عـلى مدينة أدِرْنة (Edirne) التي تعرف باسم أدريانوبولس (Adrianople)، وأصـبـحت أدرنة في عـهـد مراد الأول عـاصـمـة للعثمانيين بدلاً من بورصة، واستمرت كذلك حتى عام ١٤٥٣م وهو تاريخ الاستيلاء على القسطنطينية[١].

ومن الضروري أن نشـير هنا إلى أن وجود العثـمانيين في آسيا الصـغرى ثم في البلقان أحـدث ردود فعل هائلة لدى الأوروبيين بزعامـة البابوية، واتجه التـفكير إلى ضرورة فتح صفحة جديدة من صفحات الحروب الصليبية لسحق هذه القوة الإسلامية الخطيرة. هكذا يمكن القول إن أوروبا كلها تقريبًا دخلت منذ ذلك الوقت في مواجهة مع العثمانيين، واستمرت هذه المواجهـة حتى سقوط الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين.

غير أن قوة العثمانيين كانت في تصاعـد مستمر خلال القرون الثلاثة الأولى التي أعقبت ظهورهم على مسرح التـاريخ. وقد تولى بايزيد الأول المعروف بـ «الصاعقة» الحكم في سنة ١٣٨٩م خلفًا لوالده مراد الأول فاستطاع أن يتصدى للتهديد الأوروبي ضد العثمانيين في البلقان[٢]. ولكن الدولة العثمانية مرت بفترة اضطراب مؤقت بعد وفاة بايزيد الأول سنة ١٤٠٣م، وانتهت هذه الفترة بتولي ابنه محمد الأول الحكم في سنة ١٤١٣م. ويُعَدُّ محمد الأول المؤسس الثاني للدولة العثمانية [٣]. وقد خلفه ابنه مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م) فاستطاع أن يؤكد هيـبة الدولة ويزيدها قوة واستقرارًا،

(١) محمد فريد: المرجع السابق، ص ٤٤-٤٥. وحـول مدينة أدرنة انظر هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية بقلم مورتمان Mordtmann (دار الشعب، القاهرة)، جـ٢، ص٤٧٦-٤٨٢ .

(٢) For the details see:Lord Eversley , The Tukish Empire: its Growth and Decy. London, 1917, p. 44ff.

(٣) د. محمد حرب: الدولة العثمانية، شزكة سفير، القاهرة ١٩٩٦م، ص١٥ .

كما استطاع أن يواجه التحدي الأوروبي المتزايد بنجاح مـذهل؛ فقد انتصر العثمانيون في عهده (سنة ١٤٤٤م) انتصاراً حاسمًا في معركة فارنا (Varna) ضد تحالف غربي قادته البـابوية وتألف من ملوك المجـر وبولندا ونابولي وحكام ترانسيلفـانيا وصـربيا والبندقية وجنوة[١].

كانت الإمـبراطورية تلعب دوراً مهـمًا في تحريض الغـرب الأوروبي ضد الدولة العثمـانية التي توسعت على حساب الأراضي البـيزنطية في آسيا الصـغري والبلقان. ومن هنا برزت الحاجة الملحة - وخصوصًا لدى البيزنطيين- إلى محاولة رأب الصدع بين الكنيستين: الشرقية (الأرثوذكسـية) والغربية (الكاثوليكية). وفي هذا الإطار عقد اجتماع بين ممثلي الكنيستين في فلورنسا، حضره الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثامن (John VIII) الذي حكم من سنة ١٤٢٥ إلى سنة ١٤٤٨م، وأسفـرت المناقشـات الطويلة بين الجانبين عن صدور مرسوم الوحدة Decree of Union في الخامس من يوليو سنة ١٤٣٩، حيث تقرر بمقتضاه اندماج الكنيسـتين اليونانية والرومانية في كيان مذهبي واحد[٢]. ورغم أن هذا الاندماج لم يتـحقق على أرض الواقع فـإن ما يعنينا هنا أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تبذل قصاراها لتوحيد جبهتها مع الغرب الأوروبي والوقوف صـفًا واحداً ضد الدولة العـثمانيـة لاستئصـال شأفتـها من آسيا الصـغرى وأوروبا.

ولم تقف الدولة العثمانية مكتوفـة الأيدي أمام هذا التهديد؛ فقد وضعت نصب عينيها هدفًا مـحدداً وهو الإجهاز تمامًا على ما تبقى من الإمبـراطورية البيزنطية التي أصبح الصراع معها مسألة حيـاة أو موت. ومما أكد إصرار العثمانيين على تحقيق هذا الهدف أن استمـرار الوجود البيزنطي كان يقف حائلاً دون اندمـاج الأقاليم الآسيوية والأوروبية الخاضعة للدولة العثمانية في كيان جغرافي واحد.

(١) Lapidus, I. M., A History of Islamic Societies, Cambridge, 1988. See also: Babinger, F., Mehmed the Conqueror, translated from the German by R. Manheim, Princeton, 1959, pp. 27 ff.

(٢) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى:
Steven Runciman, The Fall of Constantinople, Cambridge, 1990, pp. 16-19; Babinger, op. cit., p. 17.

كانت العاصمة (القسطنطينية) هي أهم مـا تبقى من أقاليم الإمبراطورية البيزنطية في ذلك الوقت، وكان الاستيلاء عليهـا يعني وضع نهاية حاسمة للصراع الطويل بين بيزنطة والإسلام. ولهذا كان من الطبيـعي أن تكون القسطنطينية هي هدف العثمانيين الأكبر.

وقد بدأت محاولاتهـم الجادة للاستيلاء على القسطنطينيـة منذ عهد بايزيد الأول (الصاعقة) الذي حاصرها غير مرة، ولكـن حصاره الأخير لها في أواخر حكمه كان أشد هذه المرات خطورة[١]. ولم ينقذ العاصمة البـيزنطية من هذا الحصار إلا اضطرار بايزيد لمواجهة الحملة الشرسة التي قام بها القائد المغولي تيمورلنك Tamerlane ضد آسيا الصغرى في سنة ١٤٠٢م، وهي الحملة التي انتهت بهزيمة بايزيد وأسره، وذلك في المعركة المعروفة باسم «معركة أنقرة»[٢]. ومات بايزيد في الأسر فـي العام التالي (مارس ١٤٠٣م)[٣].

وفي عهـد السلطان مراد الثاني تعرضت القسطنطينية لحصـار آخر لم يكن أقل خطورة، وذلك في سنة ١٤٢٢م، وقد أعـدّ السلطان لهذا الحصار إعـدادًا جيدًا على المستوى البري والبـحري، واستعمل فيه المدفع لأول مرة في تاريخ الجـيش العثماني، كما استخدم أبراجًـا متحركة يمكن بواسطتها مهاجـمة أسوار القسطنطينية. ومع ذلك فقد اضطر السلطان لرفع الحصار ليضع حدًا للتمرد الذي قاده أخوه مصطفى في آسيا الصغرى. وقد اكتفى مراد الثاني بتوقيع معاهدة مع الإمبراطور البيزنطي تعهد الأخير بمقتضاها أن يدفع للسلطان مبلغًا كبـيرًا من المال، كما نجح السلطان في تجريده تقريبًا من كل الأراضي التابعة له خارج أسوار القسطنطينية[٤].

---

(١) لمزيد من المعلومات حول حصار القسطنطينية في عهد بايزيد الأول، راجع:
Lord Eversley, op. cit., pp. 45-46, 52; F. M. Emecen, The Conquest of Constantinople, an article published in a book entitled : The Turks, Ankara, 2002, vol. 3, p. 7.
وانظر أيضًا: محمد حرب: المرجع السابق، ص ١٣؛ بول كولز: العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م، ص ٣٣.

(٢) A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire. Wisconsin, 1952, pp . 634-635 .

(٣) راجع مادة «بايزيد الأول» في دائرة المعارف الإسلامية (طبعة دار الشعب) بقلم إيوار، جـ٦، ص١٦٥.

(٤) Lord Eversley, op. cit., pp. 65 - 66.

وإذا كان السلطان مراد الثاني لم يتمكن من فتح القسطنطينية فقد تمكن من إنجاز هذه المهمة - على وجهها الأكمل- ابنه وخليفته محمد الثاني (١٤٥١-١٤٨١م). وقد كان محمد الثاني في حدود الحادية والعشرين من عمره عند توليه الحكم، وكان صغر سنه سببًا في اقتناع الأوروبيين بقلة كفاءته وانعدام خبرته مما أغراهم به وشجعهم على الجرأة عليه. وفي هذا الإطار حاول بعضهم أن يحث ملك فرنسا شارل السابع على انتهاز الفرصة والقيام بحملة صليبية ضد الأتراك لإخراجهم، ليس من أوروبا فحسب، بل من آسيا أيضًا، وتخليص العالم المسيحي منهم(١).

ولكن هذا السلطان الفتى كان أبعد غورًا مما يظنون. وقد جعل غايته الأولى منذ بداية حكمه أن يستولي على القسطنطينية. وكان لابد أن يعد لهذا الأمر عدته برًا وبحرًا. وكانت المدافع إحدى آلات الحصار المهمة، فاشترك في إنتاجها الصناع الأتراك والأجانب، واتخذوا من مدينة أدرنة مركزًا لها. واستغرق إنتاج أحد هذه المدافع ثلاثة أشهر من العمل المتواصل، وكان بإمكانه قذف حجر زنته ستمائة كيلو جرام(٢). ثم إن السلطان أمر ببناء قلعة حصينة على الجانب الأوروبي من البسفور، في مواجهة القلعة التي كان قد بناها السلطان بايزيد الأول على الجانب الآسيوي سنة ١٣٩٥م عندما كان يحاصر القسطنطينية، وبهذا تتم له السيطرة الكاملة على المضايق(٣).

ولما كان فتح القسطنطينية لا يمكن أن يتحقق إلا بتعاون القوات البرية والبحرية معًا، فقد أمر محمد الثاني بإنشاء سفن جديدة لتعزيز الأسطول العثماني، فأصبح في حوزته عدة مئات من السفن مختلفة الأحجام والأغراض، تقف على أهبة الاستعداد لبدء الحصار البحري(٤).

---

(١) F. Babinger, op. cit., pp. 67 - 68 .

(٢) Emecen, op . cit., p. 172. Cf.; Runciman, op. cit., pp. 77-78 .

(٣) Babinger, op. cit., p. 72 ; Imber, op. cit., p. 28 ; Eversley, op. cit., p. 74 .
هذا؛ وقد بدأ بناء القلعة في الخامس عشر من إبريل سنة ١٤٥٢، وانتهى في آخر أغسطس من العام نفسه. انظر: Babinger, op. cit., p. 76.

(٤) Runciman, The Fall of Constantinople, pp. 75-76. Cf.; Emecen, op. cit., p. 172 .

وتختلف مصادرنا فـي تقديرها لعدد الجنود العثمانيين الذين شـاركوا في حصار القسطنطينية. فبينما يرتفع به البـعض إلى أربعمائة ألف جندي يهبط به البعض الآخر إلى مائة وخمسة وستين ألفًا. وهناك تقديرات أخرى تقع بين هذين التقديرين. ويرى المؤرخ الألماني بابينجر Babinger - بحق - أن التقدير الأخير نفـسه مبالغ فيه، فلم تكن الدولة العثمانيـة في ذلك الوقت من الاتساع بحيث يمكنها احتواء مـائة وخمسة وستين ألفًـا من الجنود المدربين، وهو يعتـقد أن العدد كـان في حدود ثمـانين ألفًا، ويمكن أن يضاف إلى هذا عـدد آخر من القوات غير النظامـية أو المتطوعين[١]. وقد كانت هناك فـرقة متـميزة في الجـيش العثـماني هي فرقـة الانكشارية Janissaries (ومعناها الجنود الجدد)، وكـان عدد المشاركين منهم في الحصار في حـدود اثني عشر ألفًا[٢].

كان الإمـبراطور الذي يجلس على عرش بيزنطـة في ذلك الوقت هو قسطنطين الحادي عشر Constantine XI Palaeologus (١٤٤٩-١٤٥٣م). ويذكر المؤرخون أنه عامل محمد الثاني عند توليه الحكم بطريقة اسـتفزازية متصورًا أنه يتعامل مع فتى عديم الخبرة. ومن شواهد ذلك تهديده له بأنه سـيحرض ضده الأمير أورخان، وهو أحـد أحفـاد بايزيد الأول، وكـان في أسْـر البيـزنطيين، ولكن الـسلطان تلقى هذه التهديدات دون أن يعيرها اهتمامًا[٣].

أكمل محمـد الثاني استعداداته لحصـار القسطنطينية في ربيع سنة ١٤٥٣م، وبدأ الحصار الفعلي بعد صلاة الجمعة في السادس من إبريل من ذلك العام[٤]. وقد سعى الإمبراطور البيـزنطي جاهدًا- قبل بدء الحصار- لتجنيـد كل القوى الأوروبية للوقوف

---

(١) Babinger, op. cit., p. 84. Cf.; Runciman, op. cit., p. 76 .

(٢) Eversley, op. cit., p. 76.

والإنكشارية اسم أطلق على فرق المشاة النظاميين التي كونها العـثمانيون في القرن الرابع عشر الميلادي. وكان أول من نظمها السلطان أورخان. وكانوا يُجَنَّدون من أبناء البلاد المفتوحة وخاصة في البلقان، ويتلقون تدريبًا عسكريًا خـاصًا، ويربون تربية إسـلامية. انظر: مـادة «الإنكشارية» في دائرة المعارف الإسـلامية (طبـعة دار الشعب) بقلم إيوار، جـ٥، ص ١١١-١١٦ .

(٣) Lord Eversley, op. cit., p. 75 ; Imber, op. cit., pp. 98-99 ; Babingre, op. cit., p. 72 .

(٤) Babinger, op. cit., p. 86.

بجانبه، لكنه لم يجد استجابة كافية[١]. بل إن محاولته لتحقيق الوحدة بين الكنيستين الرومانية واليونانية لم تكن أحسن حظًا من المحاولة التي قام بها سلفه الإمبراطور يوحنا الثامن؛ فقد واجهت اعتراضًا حادًا على مستوى الخاصة والعامة، وعبر عن هذا الاعتراض خير تعبير نوتاراس Notaras القائد العام للقوات البيزنطية حين قال: إنه يفضل أن يرى عمامة الأتراك في القسطنطينية على أن يرى طاقية الكرادلة[٢]! وفي النهاية لم تسفر استغاثة الإمبراطور بالقوى الأوروبية الغربية إلا عن استجابة ضئيلة تمثلت في قدوم عدد لا يتجاوز ثلاثة آلاف متطوع، وكان عدد كل المدافعين عن العاصمة - تحت قيادة الإمبراطور- في حدود ثمانية آلاف[٣].

ولا مجال هنا للحديث التفصيلي عن تطور الحصار، ولكن تجدر الإشارة إلى أن المحاصرين داخل القسطنطينية قاوموا الحصار بعناد وقاتلوا بشراسة محدثين خسائر في صفوف القوات العثمانية. وكان على رأس المقاتلين الإمبراطور نفسه الذي ضرب أمامهم مثالاً في الصمود، ولكنه كان يسبح ضد التيار لأن الحصار كان قد استحكمت حلقاته وأصبح سقوط المدينة في أيدي العثمانيين أمرًا لا فكاك منه.

وفي الرابع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م، أي قبل اقتحام القسطنطينية ببضعة أيام، أرسل السلطان محمد إلى الإمبراطور يطلب منه تسليم المدينة دون قتال في مقابل تأمين أهلها على حياتهم وممتلكاتهم وعقيدتهم بالإضافة إلى إعطاء الإمبراطور جزيرة المورة، ولكن الأخير رفض هذا العرض بإصرار[٤]. ويشكك بعض المؤرخين الغربيين في صدق نوايا السلطان على أساس أن هدفه الحقيقي كان قيام مبعوثه بدراسة وضع المدينة المحاصرة وظروف المدافعين عنها، ولم يكن الهدف تقديم السلام لعدوه بشروط رحيمة[٥]. على أننا لا نجد في الحقيقة مبررًا لهذا التشكيك لأن السلطان قدم هذا العرض في المراحل الأخيرة للحصار بعد أن بات واضحًا أن المدينة

---

(١) Ibid., p. 79 .

(٢) Lord Eversley, op. cit., p. 77. Cf.; Runciman, The Fall of Constantinople, p. 21 .

(٣) Lord Eversley, op. cit., p. 78.

(٤) محمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ٦٠ .

(٥) Babinger, op. cit., pp. 89-90.

استهلكت طاقتها ولم تعد لديها قدرة على تقديم مزيد من المقاومة. وربما كان من الممكن التشكيك في نوايا السلطان لو أنه طرح عرضه هذا في بداية الحصار؛ إذ ربما يُقال في هذه الحالة إنه أراد أن يُجنِّب قواته ما يمكن أن يترتب على الحصار من خسائر في العدد أو العتاد. ثم إن سلوك محمد الثاني تجاه أهل القسطنطينية بعد اقتحام المدينة يجعلنا نعتقد أنه كان صادقًا في مبادرته هذه.

ولم تمض إلا أيام قليلة على رفض الإمبراطور لهذه المبادرة حتى أمر محمد الثاني بشنِّ الهجوم الشامل على القسطنطينية برًا وبحرًا، وذلك فجرَ التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣م. ولم تستطع المدينة الصمود فاستسلمت في اليوم نفسه، وسقط آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادي عشر صريعًا في الميدان وهو يقاتل بضراوة[١]، وسقطت بسقوطه دولة الروم أو الإمبراطورية البيزنطية التي ظلت في عداء سافر مع دولة الإسلام طوال أكثر من ثمانية قرون. ونقل محمد الثاني عاصمة دولته من أدرنة إلى القسطنطينية وسماها «إسلامبول»[٢] أي مدينة الإسلام، كما عرف هو في التاريخ منذ ذلك الوقت بلقب «الفاتح»[٣].

ماذا كان سلوك محمد الفاتح بعد اقتحام القسطنطينية؟ وما حقيقة العهد الذي أعطاه لأهلها؟ وما دلالاته؟ هذا ما نناقشه الآن.

ب- مناقشة عهد محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية:

يلفت نظرنا في البداية ما يذكره بعض المؤرخين من أن الأتراك بعد اقتحامهم المدينة قتلوا كل من وجدوه في شوارعها دون تمييز، ومارسوا السلب والنهب فيها

---

(١) محمد فريد: المرجع السابق، ص ٦٠-٦١ . وانظر أيضًا: Babinger, op. cit., pp. 91-92 . ولمزيد من التفاصيل حول حصار محمد الفاتح للقسطنطينية منذ بدايته حتى نهايته ارجع إلى: Runciman, The Fall of Constantinople, pp. 76-144 .

(٢) عرفت «إسلامبول» أيضًا باسم «إستانبول»، وأطلق عليها في بعض الأوقات اسم «دار الخلافة» أو «دار السعادة»، وعرفت أيضًا باسم «الآستانة» وهي كلمة فارسية معناها العتبة. ولا تعرف في تركيا الحديثة إلا باسم «استانبول». انظر: عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، جـ١، ص١٤، هامش ١ .

(٣) وأطلق عليه أيضًا: «أبو الفتح» و «أبو الفتوح». محمد فريد: المرجع السابق، ص٦٧؛ عبد العزيز الشناوي، المرجع السابق، جـ١ ، ص ١٤ .

ثلاثة أيام بلياليها حتى تدخل السلطان محمد الفاتح بعد نهاية الأيام الثلاثة، وأمر بإيقاف هذه الممارسات، وأعطى أمانًا لأهالي القسطنطينية ضمن لهم بمقتضاه عدم التعرض لهم بأذى في أنفسهم أو أموالهم أو عقائدهم(١).

وقبل أن نناقش الأمان نفسه نتوقف قليلاً لنناقش ما يتصل بعمليات القتل والسلب والنهب التي سبقته. والجدير بالملاحظة أن بعض المؤرخين المسلمين فسروا ذلك على أنه كان إعمالاً للشريعة الإسلامية التي تبيح مثل هذه العمليات لمدة ثلاثة أيام في البلاد التي تفتح عنوة(٢). فما مدى صحة هذا التفسير؟

إن القضية هنا شديدة الوضوح فيما نتصور؛ فقد فتحت القسطنطينية عنوة بعد أن قاتل أهلها المحاصرون بداخلها بشراسة، وألحقوا بالجيش العثماني خسائر لا يُستهان بها. وبعد اقتحام المدينة لم يكن هناك ما يضمن زوال مصادر التهديد تمامًا؛ ولهذا كان لابد من التأكد من استئصال جيوب المقاومة بشكل نهائي قبل أن يستطيع السلطان منح الأمان لسكان المدينة. فلم يكن من المتصور أن يمنح محمد الفاتح أمانًا لسكان القسطنطينية على حساب أمن قواته هو. وليس من الضروري أن تكون المدة التي تمر قبل منح الأمان يومًا أو يومين أو ثلاثة أو غير ذلك، ولكن الضروري هو التأكد من عدم تعرض القوات الفاتحة للخطر. فلما مر الوقت الذي شعر بعده محمد الفاتح أنه لا يوجد خطر حقيقي يهدد قواته أعطى الأمان لأهالي القسطنطينية(٣)، وذلك بعد أن دخل كنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia (الحكمة المقدسة) التي بناها الإمبراطور جستنيان الأول - وهي من أعظم كنائس العالم- «وأمر بأن يؤذَّن فيها للصلاة إعلانًا بجعلها مسجدًا جامعًا للمسلمين»(٤).

كان عهد محمد الفاتح مع أهالي القسطنطينية نوعًا من الأمان الذي تعهد لهم فيه بمجموعة من الحقوق تتلخص فيما يلي:

---

(١) حول التفاصيل ارجع إلى: Lord Eversley, op. cit., pp. 85 - 87.

(٢) راجع: الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مجموعة دراسات بإشراف أكمل الدين إحسان أوغلي، ص ٢٤ .

(٣) يذكر محمد فريد أن السلطان دخل المدينة عند الظهر «فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب وغيره، فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فساد الأمن حالاً». تاريخ الدولة العلية، ص٦١ .

(٤) نفس المرجع والصفحة. وانظر أيضًا: Runciman, op. cit., p. 149 .

أولاً: ضمن لهم حماية أنفسهم وأموالهم ودينهم .

ثانياً: منح الهاربين منهم حق العودة إلى ديارهم.

ثالثًا: أطلق سراح الأسرى نظير قدية بسيطة تسدد على أقساط متباعدة.

رابعًا: ضمن للكنيسة الأرثوذكسية (اليونانية) عددًا من كنائس العاصمة.

خامسًا: أعطى لأتباع هذه الكنائس حق الاحتفال فيها بطقوسهم الدينية وفق تقاليدهم الموروثة.

سادسًا: أعطى للأرثوذكس الحق في انتخاب رئيس الكنيسة الأرثوذكسية. وبمقتضى ذلك وقع اختيار الأرثوذكس على جناديوس Gennadius ليكون أول بطريرك لهم بعد الفتح العثماني للقسطنطينية[1] .

سابعًا: جعل للبطريرك الحق في التدخل المباشر لدى السلطات لرفع الظلم الذي قد يقع من بعض الولاة على المسيحيين، وأعطى للأساقفة في الولايات من الحقوق ما أعطاه للبطريرك في القسطنطينية.

ثامنًا: أعطى المسيحيين قدرًا معينًا من الاستقلال في المسائل المدَنيَّة، وجعل مجلس قضاء البطريركية هو الذي يفصل في منازعات المسيحيين ويقضي بالعقوبات التي يراها. وكانت حكومة السلطان تنفذ ما يقضي به مجلس البطريركية.

تاسعًا: جعل لكل جماعة دينية الحق في تنظيم مسائل الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث وفق ما تقضي به ملتها أو مذهبها الديني.

---

(١) Lord Eversley, op. cit., p. 88; Runciman, op. cit., p. 155.

هذا؛ وقد قلد السلطان بنفسه منصب البطريرك لـ «جناديوس» في حفل مهيب، وقال له بهذه المناسبة: «أقلدك منصب البطريرك، فليحفظك الله! اعتمد على صداقتي في كل الأحوال والمناسبات، وتمتع في سلام بكل المزايا التي تمتع بها أسلافك».

انظر: Lord Eversley, op. cit., Runciman, op. cit.

وقد أمد محمد الفاتح البطريرك بحرس خاص من الإنكشارية. انظر: محمد فريد، نفس المرجع والصفحة.

عاشراً: أقر لليهود بملكيتهم لبِيَعهم وضمن لهم حرية العقيدة وعاملهم بنفس روح التسامح التي عامل بها المسيحيين[1].

عندما نعيد قراءة ما احتوى عليه هذا الأمان من حقوق فإننا نستخلص منه بعض الدلالات أو الملاحظات الأساسية:

وأول ما نستخلصه أن السلطان كان أبعد ما يكون عن شهوة الانتقام التي تسيطر على كثير من القادة والزعماء في مثل هذه الظروف؛ فقد ذكرنا أن القسطنطينية قاتلت بعناد وشراسة، ورفض الإمبراطور مبادرة الصلح التي قام بها السلطان من أجل تسليم المدينة طوعًا؛ حقنًا للدماء. ولم يكن من المستغرب بعد اقتحام السلطان للمدينة أن يحيلها إلى بحر من الدماء كما فعل الصليبيون في بيت المقدس، ولكن السلطان لم يفعل ذلك. وقد ناقشنا منذ قليل ما حدث عند اقتحام القسطنطينية مما يصفه بعض المؤرخين الغربيين بالقتل والسلب والنهب، وقلنا: إن الموقف كان مازال محفوفًا بالأخطار بالنسبة للقوات العثمانية في الفترة التالية مباشرة لاقتحام المدينة، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير بعض ما جرى من مواجهات وسفك دماء. وفور شعور السلطان بزوال الخطر الذي يهدد قواته منح الأمان لأهالي القسطنطينية.

ونستخلص **ثانيًا** مدى ما يتسم به النظام الإسلامي من سماحة تجاه عقائد الآخرين. فلم يكتف محمد الثاني بإطلاق حرية العقيدة للمسيحيين وغيرهم من طوائف، بل إنه ذهب إلى حد تنصيب البطريرك بنفسه وتقديم كل صور العون له وإمداده بحرس خاص من الانكشارية. وهذه اللفتات العميقة الدلالة كان من شأنها أن تجسِّد أمام الأوروبيين المعاصرين له نموذجًا بيِّنًا من نماذج التسامح الإسلامي.

على أننا لابد من أن نؤكد هنا أن ما فعله السلطان محمد الفاتح في هذا الصدد

---

(١) حول أمان محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية ارجع إلى: محمد فريد، نفس المرجع والصفحة؛ محمد حرب: الدولة العثمانية، ص ٢٤-٢٦؛ محمود ثابت الشاذلي: المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، مكتبة وهبة، القاهرة: ١٩٨٩م، ص ١٠٨-١٠٩؛ الدولة العثمانية: تاريخ وحضارة، مجموعة دراسات بإشراف أكمل الدين إحسان أوغلي، ص ٢٤. وانظر أيضًا:

Lord Eversley, op. cit., pp. 88- 89 ; Thomas Arnold, The Preaching of Islam. London, 1913 , pp. 145- 147.

لم يكن أمرًا استثنائيًا أو سلوكًا خاصًا به كما قد يزعم البعض، بل إنه كان مبدأ عامًا التزم به سلاطين آل عثمان- خصوصًا في عصر ازدهار دولتهم- ولم يكن ذلك إلا انعكاسًا أمينًا لروح الإسلام[١] .

ثم إننا نستخلص - **ثالثًا** - أن ما تمتع به اليهود في ظل أمان محمد الفاتح لم يكن أمرًا مألوفًا في ضوء الظروف التي كانت تحيط بحياتهم في أوروبا في ذلك الوقت؛ فقد كانوا يعيشون في تعاسة حقيقية، وكانوا يتعرضون لاضطهاد متواصل[٢]. ولكن أمان محمد الفاتح جعلهم يأمنون على حياتهم وعقيدتهم وبيَعهم. وقد أظهر لهم السلطان من الود والتسامح ما جعلهم يعيشون عصرًا من أزهى عصورهم؛ ومن مظاهر تقديره لهم أنه اعتمد عليهم في سياسته التجارية والمالية كما اتخذ من بينهم طبيبه الخاص وهو يعقوب باشا الذي كان يقوم أحيانًا بدور مستشاره المالي[٣] . ولم يكن ذلك غريبًا على اليهود في ظل دول الإسلام المختلفة؛ فقد نعموا بمستوى مماثل من التسامح في مصر والمغرب والشام والأندلس وغيرها، وعانوا من الاضطهاد الحقيقي على يد الأوروبيين لا المسلمين.

ونستخلص أخيرًا من أمان محمد الفاتح أن معاملة المسلمين المنتصرين للأوروبيين كانت تختلف جذريًا عن معاملة الأوروبيين المنتصرين للمسلمين أو غيرهم من شعوب الأرض. لقد دخل المسلمون بيت المقدس منتصرين في عصر عمر بن الخطاب، ورأينا فيما سبق كيف أمَّنوا أهلها على دمائهم وأموالهم وعقائدهم وكنائسهم؛ ثم اقتحم الصليبيون بيت المقدس في سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) فحوَّلوا المدينة إلى بحر من الدماء يخوضون فيه بأقدامهم وقتلوا من المسلمين في المسجد الأقصى وحده أكثر من سبعين ألفًا، ولم يفرقوا بين شاب أو شيخ أو امرأة أو صبي[٤] . بل إن المقارنة بين ما ارتكبه الصليبيون من قتل وتدمير عندما احتلوا

(١) انظر تفاصيل ذلك في: Thomas Arnold, op. cit., pp. 143 - 205.

(٢) Babinger, op. cit., p. 412 .

(٣) Ibid., pp. 414, 427. Cf.; Runciman, op. cit., p. 77.

(٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص٢٨٣-٢٨٤ . وانظر أيضًا:

H. M. Mayer, The Crusades, Traslated from the German by Gillingham. Oxford, 1988. pp. 55-56 .

القسطنطينية سنة ١٢٠٤م في الحملة الصليبية الرابعة[١] وبين ما فعله محمد الفاتح عند اقتحامه لها سنة ١٤٥٣م تبدو مثيرة للدهشة والعجب. فالصليبيون اقتحموا مدينة يدين سكانها بدينهم ويختلفون معهم في المذهب فقط، أما محمد الفاتح فقد اقتحم مدينة يدين سكانها بغير دينه. ولكن الفرق بين الموقفين لا يحتاج إلى تعليق. وبعد حوالي أربعين عامًا من استيلاء محمد الفاتح على القسطنطينية استولى الإسبان على غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس، وكان ذلك في سنة ٨٩٧هـ (١٤٩٢م)، وارتكبوا من صنوف الوحشية ما لا مجال للدخول في تفاصيله هنا[٢]. ولا نريد أن نطيل كثيرًا في سرد مثل هذه الأمثلة، ولكن ما نود تأكيده هنا أن أمان محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية يقدم صورة ناصعة من صور معاملة المسلمين المنتصرين لغيرهم، وهذه الصورة لا نجدها في معاملة الأوروبيين المنتصرين للمسلمين، لا في العصور الوسطى وحدها، بل وفي العصور الحديثة أيضًا.

وفي نهاية عرضنا للعهدة العمرية وعهد محمد الفاتح لأهالي القسطنطينية تبقى أمامنا نقطة أخيرة وهي المقارنة بين هذين العهدين.

يتفق العهدان فيما يتسمان به من روح التسامح حيال غير المسلمين؛ فكلاهما يقدم الحماية الكاملة لأهل البلدين المفتوحين ويضمن لهم حرية العقيدة.

كما يتفق العهدان في أن كلاً منهما يتعامل مع مدينة من أهم المدن البيزنطية؛ فالعهدة العمرية تتعامل مع بيت المقدس بكل ما لها من مكانة دينية في الإمبراطورية البيزنطية التي كانت زعيمة العالم المسيحي في ذلك الوقت، وكان بطريرك بيت المقدس يتمتع بمكانه مهمة بين بطاركة الكنيسة الشرقية. أما عهد محمد الفاتح فقد كان يتعامل مع العاصمة البيزنطية نفسها، أي مع أهم مدينة في الإمبراطورية، وكانت لها مكانتها السياسية والدينية المتميزة؛ فقد كانت مقرًا للبطريركية الأم في الدولة البيزنطية.

ويتفق العهدان أيضًا في أن من أمضاهما هو الخليفة أو رأس الدولة؛ فقد رأينا

---

(١) Mayer, op. cit., p. 203.

(٢) Philip, Hitti, History of the Arabs. London, 1970, pp. 555-556.

أن الخليفة عمر بن الخطاب ذهب بنفسه إلى الشام ليتولى عقد الصلح، وقد أعطى محمد الفاتح بنفسه أيضًا أمان القسطنطينية.

ولكن العهدين يختلفان في بعض الأمور كذلك؛ وأهمها أن العهدة العمرية سبقت استسلام بيت المقدس، وكانت الأساس الذي بُني عليه هذا الاستسلام، أما أمان محمد الفاتح فقد تلا عملية الاستسلام وأدخل الطمأنينة إلى نفوس أهل القسطنطينية الذين لم يكونوا يتوقعون مثل هذه المعاملة.

أما الوجه الثاني للاختلاف - وهو مرتبط بالأول - فهو أن العهدة العمرية تتعامل مع مدينة فتحت صلحًا. أما أمان «الفاتح» فإنه يتعامل مع مدينة فتحت عنوة. ولهذا لم يصدر هذا الأمان إلا بعد أن تأكد «الفاتح» من انتهاء حركة المقاومة في المدينة وزوال الخطر الذي كان يمكن أن يهدد جنده. وفي أمان «الفاتح» لم يكن هناك مجال أمام أهل القسطنطينية لأن يشترطوا على السلطان شيئًا؛ لأنهم قاوموه حتى اقتحم المدينة قسرًا.

ثم إن العهدة العمرية صدرت والروم مازالوا يمثلون التهديد الأكبر للمسلمين؛ وكانت مراكزهم في مصر والمغرب وآسيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط من أهم مصادر هذا التهديد، ولهذا وردت الإشارة إلى الروم في العهدة العمرية، وكان من الطبيعي أن يُعَدَّ التعاون معهم نقضًا لهذه العهدة. أما أمان «الفاتح» فقد كان صدوره إيذانًا بانتهاء دولة الروم وإسدال الستار على آخر حلقات صراعها الدامي الطويل مع المسلمين.

ولكن يبقى أخيرًا أن نؤكد أن العهدة العمرية وأمان محمد الفاتح يقدمان نموذجين رائعين للتسامح الإسلامي في مجال التطبيق، كما يثبتان بالحجة الدامغة أن تهمة الإرهاب التي يحلو للبعض أن يلصقها بالإسلام ليست إلا مَحْض افتراء وبهتان.

***

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: مصادر عربية ومترجمة:

(لم يوضع في الاعتبار عند الترتيب كلمة ابن)

* **أبو يوسف** (يعقوب بن إبراهيم): كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

* **ابن الأثير**: (عز الدين علي بن محمد): الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت: ١٩٧٩م.

* **الأزدي** (محمد بن عبد الله): تاريخ فتوح الشام، بتحقيق عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، القاهرة: ١٩٧٠م.

* **بتلر** (ألفريد): فتح العرب لمصر، ترجمة محمد فريد أبي حديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٨٩م.

* **البلاذري** (أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٩١م.

* **ترتون** (أ.س): أهل الذمة في الإسلام، ترجمة د. حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٤م.

* **حسن إبراهيم حسن** (الدكتور): تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: ١٩٩٦م.

* **خليفة بن خياط**: تاريخ خليفة بن خياط بتحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت: ١٩٩٣م.

* **ابن سعد** (محمد): الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، (د.ت).

* **الطبري** (أبو جعفر محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبري) تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة: ١٩٧٩م.

* **عبد العزيز الشناوي** (الدكتور): الدولة العثمانية دولة مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة: ١٩٨٠م.

* **ابن عساكر** (أبو القاسم علي بن الحسن): تاريخ مدينة دمشق: المجلد الأول، بتحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق: ١٩٥١م.

* **ابن كثير** (أبو الفداء الحافظ): البداية والنهاية، دار الكتب العلمية، بيروت: ١٩٨٥م.

* **كمال الدين إحسان أوغلي**: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: مجموعة دراسات بإشراف كمال الدين إحسان أوغلي، نقله إلى العربية صالح سعداوي، إستانبول: ١٩٩٩م .

* **كولز** (بول): العثمانيون في أوروبا، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ١٩٩٣م .

* **الماوردي** (أبو الحسن علي بن محمد): الأحكام السلطانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة: ١٩٧٣م.

* **محمد حرب** (الدكتور): الدولة العثمانية. شركة سفير، القاهرة: ١٩٩٦م.

* **محمد حميد الله**: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة. هيئة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٤١م .

* **محمد فريد بك**: تاريخ الدولة العلية العثمانية، مكتبة الآداب، القاهرة: ١٩٩٧م.

* **محمود ثابت الشاذلي**: المسألة الشرقية - دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية. مكتبة وهبة، القاهرة: ١٩٨٩م.

* **الواقدي** (محمد بن عمر بن واقد): المغازي ، بتحقيق الدكتور مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت: ١٩٨٤م.

* **اليعقوبي** (أحمد بن يعقوب): تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ١٩٩٢م.

ثانيًا : أجنبية :

- Arnold, T.W., The Preaching of Islam. London, 1913.
- Babinger, F., Mehmed the Conqueror, translated from the German by R. Manheim, Princeton, 1959 .
- Emecen, F. M., The Conquest of Constantinople, An Article published in a book entitled: The Turks vol. 3 Ankara, 2002 .
- Eversley (Lord): The Tukish Empire: its Growth and Decay. London, 1917.
- Gibbon, E., The Decline and Fall of the Roman Empire, New York, 1915 .
- Glubb, I. B., The Great Arab Coquests. London, 1963 .
- Hitti, Philip, History of the Arabs. London, 1970 .
- Hitti (Philip), History of Syria, London, 1951 .
- Imber, c., The Ottoman Empire, New York, 2002 .
- Lapidus, I. M., A History of Islamic Societies. Cambridge, 1988 .
- Le Strange, G. Palestine under the Moslems. London, 1890.
- Mayer, H. M., The Crusades. Traslated from the German by John Gillingham. Oxford, 1988 .
- Runciman, S. The Fall of Constantinople, Cambridge, 1965.
- Vasiliev, A. A. History of the Byzantine Empire. Wisconsin, 1958.

***